تفسير سورة الرعد

سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب المصحف ، وآياتها ثلاث وأربعون أو أربع وأربعون أو خمس وأربعون أو سبع وأربعون على اختلاف المصاحف الكوفية والمكية والشامية [١] .

مكية أو مدنية ؟ :

وهذه السورة كتب فى بعض المصاحف أنها مدنية ، ومنها المصحف الذى أشرفت عليه لجنة من كبار العلماء فى مصر ، وكانوا يسمونه (مصحف الملك) [٢] ، والاختلاف كبير فى المكى والمدنى ، ولا يخلو من خلل كثير ، فكثير من السور التى يقال عنها مدنية إذا قرأتها داخلك إحساس أنها غير مدنية ، ومنها سورة الرعد وسورة الإنسان ، ومن يقرأ هذه أو تلك يستيقن أنها مكية ، وهذا ما جاء عن ابن عباس فقد روى مجاهد ، وعلى بن طلحة عن ابن عباس : أنها مكية .

---

(١) يختلف عدد الآيات بين الكوفيين والمكيين والشاميين باختلاف بدايات بعض الآيات أو نهاياتها ، وليس لزيادة أو إثبات آيات فى بعض المصاحف غير موجودة فى مصاحف أخرى ، فالاختلاف في العد والحساب فقط ، والسند يؤيد كل فريق . فهذا وارد ، وتجده فى كثير من سور القرآن الكريم ومثال ذلك فى سورة الرعد الآية الخامسة فهى تبدأ عند حفص بن سليمان (الذى روى القراءة عن عاصم بن أبى النجود الكوفي والذى طبعت أغلب المصاحف فى العالم الإسلامى على روايته) بقول الله تعالى ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ وتنتهى بقول الله تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فى حين أن ورشاً عن نافع المدنى جعلها آيتين الأولى ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ والثانية تبدأ من قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وتنتهى عند قوله تعالى : ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وهكذا .

(٢) هو مصحف الملك فؤاد الأول ملك مصر الأسبق والذى أشرفت على طبعه لجنة مكونة من الشيخ محمد على خلف الحسينى شيخ المقارىء المصرية وقد كتب المصحف بخط يده والأستاذ حفنى ناصف المفتش الأول للغة العربية والشيخ مصطفى عنانى والشيخ أحمد السكندرى والشيخ نصر العادلى .

وسئل الفقيه التابعى الجليل سعيد بن جبير عن قوله تعالى فى آخر سورة الرعد ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٣] أهو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية ؟ (١) ولكن بعض الروايات التى وردت – خصوصا فى أسباب النزول – جعلت بعضهم يظن أنها مدنية ،وليس الأمر كذلك .

وبعضهم يظن أن كل ما ذكر فيه أهل الكتاب أومحاجة أهل الكتاب من القرآن فهو مدنى ، مثل ما قيل فى آية سورة يونس : ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس : ٩٤] إنها مدنية ، والسورة كلها مكية ، والصحيح أن هناك أشياء كثيرة ذكرت عن أهل الكتاب فى القرآن المكى ، فينبغى أن يُتنبه لهذا .

والمكى من القرآن هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى هو ما مزل بعد الهجرة وإن نزل فى مكة كآية سورة النساء ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] التى قالوا : إنها نزلت فى مكة عند الفتح ، فالمقصود بالمكى والمدنى : الزمان لا المكان .

والقرآن الذى نزل قبل الهجرة وهو ما يسمى بالمكى يعمل على ترسيخ العقائد ، وتأسيس القواعد التى تقوم عليها الحياة الإسلامية من إرساء معاني التوحيد لله تبارك وتعالى والإيمان بالآخرة والجزاء ومصاير المؤمنين ومصاير الكافرين ، والنبوة والوحى والعمل الصالح وأصول الفضائل ومكارم الأخلاق ..

أما القرآن الذى نزل بعد الهجرة وهو ما يسمى بالمدنى ، فيعمل على تنظيم المجتمع الإسلامى فى المدينة ، فقد صار للمسلمين مجتمع فى المدينة بعد الهجرة يخاطب بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) التى لم تنزل إلا بعد الهجرة ، حيث أصبح للمؤمنين جماعة مميزة لها كيان ، ولها أرض ، ولها سلطان ، فكانت

---

(١) انظر : ابن كثير التفسير الجزء الثانى ص ٥٢١ .

(٢) ورد هذا النداء بهذه الصيغة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تسعًا وثمانين مرة فى القرآن كله كما فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن وورد مرة واحدة بصيغة ﴿ أَيُّهَ المؤْمِنُونَ ﴾ .

مهمة القرآن أن يقيم هذا المجتمع ويؤسسه ويتبعه بالترشيد والهداية والتقويم ، ومن أجل ذلك فالتمييز بين القرآن المكى والقرآن المدنى يظهر عند قراءة السور ، والذى يقرأ سورة الرعد يحس ويستيقن أنها سورة مكية ، فموضوعها مكى ، وأسلوبها مكى ، ونَفَسُها مكى ، ومن يتذوق القرآن لا يشك فى أن هذه السورة مكية .

ثم إن السور التى قبلها وبعدها مما بدأ بأحرف (الر) كلها مكية ، وهذه حلقة من هذه السلسلة ، أو هذه الزمرة ، وإن زيد فى أولها ميم لحكمة يعلمها الله (المر) .

أما مسألة استثناء بعض الآيات من السور المكية لتكون مدنية ، ففى النفس منها شىء ، وتحتاج إلى تمحيص وتحقيق فى كل ما يستثنى ، فأحياناً يستثنون آية ، ويعجب المرء لماذا استثنوها ، وهى شديدة التعلق بما قبلها وبما بعدها فى التحام وثيق ؟! مثلما استثنوا من سورة المرسلات المكية آيتها الثامنة والأربعين وقالوا : إنها مدنية ،والآية تقول ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ [المرسلات : ٤٨] وقبلها : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المرسلات] وبعدها ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات] فهل كان السياق قبل نزول الآية ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات] ؟! لا ، فهذا يخالف ما قامت عليه السورة .

فينبغى أن نحرص ونتحرى وندقق فى المكى والمدنى ، ومسألة استثناء آية أو آيات من السور، فبعض هذا يكون تبعاً لروايات حول أسباب النزول كثيراً ما تكون غير محققة وغير صحيحة .

سورة الرعد إذن : مكية نزلت فى أواخر العهد المكى على ما يبدو ، فقد وردت بعض الروايات تفيد أن سورة يونس وما بعدها من السور التى تبدأ بـ(الر) وهى يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر ، نزلت فى مدة زمنية متقاربة ،وقالوا : إن سورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء – وإن كان ترتيب نزول السور يحتاج إلى كثير من التروى والتحقيق أيضا – وهذا يعنى أنها نزلت فى السنوات الثلاث الأخيرة فى مكة قبل الهجرة وبعد وفاة أبى طالب عم الرسول

ﷺ ووفاة السيدة خديجة زوج رسول الله ﷺ فى ذلك العام الذى سمَّاه (عام الحزن) حينما اشتدت عليه قريش ،ونالت منه ومن أصحابه ما لم تنل من قبل ، فكان نزول هذه المجموعة من السور تسلية لرسول الله ﷺ ودفاعا عن النبوة فى مواجهة المكذبين لها ، والمشككين فيها ،والمفترين عليها ، ودفاعا عن الوحى كما فى سورة يونس ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ٠٠ ﴾[يونس:٢]،وكما فى سورة هود:﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود : ١] وفيها أيضًا : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ٠٠ ﴾[هود: ١٢] ومنها : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِى هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود : ١٢٠] وكما فى سورة يوسف : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف : ٩٠] وفيها أيضا : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَشَاءُ ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[يوسف : ١١٠] وسورة الرعد تسير فى هذا الاتجاه وسورة إبراهيم تسير فى هذا الاتجاه ذاته ولكن بنفس حار ، قال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[إبراهيم : ١٣ ، ١٤ ، ١٥] وفى آخر السورة: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾[إبراهيم : ٤٢] وأيضا : ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَبَرَزُوا لله الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[إبراهيم : ٤٧ ، ٤٨] ٠

وسورة الرعد منذ أول آية تمشى فى هذا الاتجاه ففيها دفاع عن النبوة وتأكيد لحقّيّة القرآن وبيان لما بعث الله به محمداﷺمن الحق المطلق ورد على أولئك الذين يطلبون الآيات الحسية فيقولون﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ٠٠ ﴾ [الرعد : ٧ ، والآية : ٢٧] فى أكثر من موضع فى هذه السورة ، فبسط الله لهم من آياته الكونية ما فيه عظة وعبرة ، ورد عليهم بردود مختلفة فى أنحاء السورة ٠

لماذا سميت سورة الرعد ؟ :

وقد سميت هذه السورة بسورة الرعد ؛ لأن الله تعالى ذكر فيها تسبيح الرعد فقال ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : ١٣] وتسميات السور توقيفية ، وهذا هو الراجح ؛ لأن الآيات كانت تنزل فيقول الرسول ﷺ : ضعوا هذه فى سورة كذا ، وضعوا هذه فى سورة كذا ، وهذا يعنى أن السور كانت معلومة .

تسميات السور وأسبابها :

والتسميات تكون لملابسات شتى فأحيانا تسمى السور باسم أولها كسورة « ص » وسورة « ق » وسورة « اقتربت » وسورة « لم يكن » وسورة « الرحمن » وغيرها ، وأحيانا تسمى باسم شىء متميز فيها كلفظة معينة لم تتكرر فى غيرها من السور مثل سورة الجاثية : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً .. ﴾ [الجاثية : ٢٨] والأحقاف : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ .. ﴾ [الأحقاف : ٢١] ، أو معنى معين له أهمية مثل سورة الشورى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] ، وسورة الصف ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] وغيرها .

وبعض السور تحمل أسماء الله تبارك وتعالى مثل سورة « الرحمن » وسورة « النور » ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] وسورة فاطر : ﴿ الْحَمْدُ للَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر : ١] وسورة غافر : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [غافر : ٣] وبعضها يحمل أسماء أشخاص كبعض الأنبياء والرسل مثل سور « نوح ، وإبراهيم ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، ومحمد » عليهم الصلاة والسلام ، وسورة المزمل والمدثر ، ومن غير الأنبياء كسورة « لقمان » وسورة « مريم » وبعضها يحمل أسماء أقوام مثل سورة « الروم » وسورة « قريش » وسورة « سبأ » أو أسماء أصناف من الناس ومن المخلوقات مثل سورة « الجن » وسورة « الملائكة » وهو اسم آخر لسورة « فاطر » وسورة « المؤمنون » وسورة « المنافقون » وسورة « المطففين » وسورة « الكافرون » ، أو أسماء أماكن مثل سورة « الأحقاف » وسورة « الحجر » أو أسماء حيوانات مثل سورة « البقرة » وسورة « الفيل » ، أو أسماء حشرات مثل سورة « النحل » ، وسورة « النمل » ، وسورة « العنكبوت » وهكذا ..

وفى بعض السور نجد أن للسورة أكثر من اسم مثل سورة « الإسراء » تسمى سورة «بنى إسرائيل » وسورة « النحل » تسمى سورة « النعم » وسورة اقتربت تسمى سورة « القمر » وسورة « لم يكن » تسمى سورة « البينة » وهكذا ، وهذه التسميات للسور متنوعة وهى تدل على تنوع موضوعات القرآن الكريم ٠

سر البداية بالبسملة :

وقد بدأت سورة الرعد بالبسملة ، كما بدأت كل سور القرآن ماعدا سورة التوبة ٠

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

والبسملة استجابة لأمر الله تعالى لرسوله فى أول آية نزلت من القرآن : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] فهى قراءة باسم الله الرحمن الرحيم فى بداية كل سورة ٠

والتسمية على الأمور ذات البال من سنن الأنبياء وهديهم ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما ركب السفينة قال : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : ٤١] وسيدنا سليمان عليه السلام حينما كتب إلى ملكة سبأ كتابه كتب فيه ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٠ ، ٣١] ٠

هل البسملة آية من الفاتحة ؟ :

وقد اختلف السلف حول البسملة : أتكون آية من كل سورة أم لا ؟ وهل هى آية من سورة الفاتحة وحدها أو ليست آية لا من الفاتحة ولا من غيرها ؟ خلافا طويلاً بين المالكية وغيرهم ٠ ورغم أن هذا الخلاف فى أمر مهم إلا أن السلف رضوان الله عليهم وسع بعضهم بعضاً فى هذا الأمركما وسع بعضهم بعضاً فى كل الأمور الخلافية الفرعية ، وصلى بعضهم وراء بعض ، ولم يجد حرجاً ولا عنتاً فى ذلك ، وهذه هى سماحة سلف هذه الأمة التى نرجو من الخلف أن يعوها ويدركوها ويسيروا على هديها ٠

والذى أرجحه أن البسملة آية من كتاب الله عز وجل [1] فإن الصحابة- رضى الله عنهم - فى عهد عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الخليفة الثالث حينما كتبوا المصاحف جردوها من غير القرآن ، وقد كانت المصاحف تحوى بعض التفسيرات والتعليقات والإضافات لعدد من الصحابة على مصاحفهم ، فلما كتبها سيدنا عثمان جردها من كل ذلك فبقيت خالصة لكلام الله عز وجل ، وهذا مما يجعلنى أرجح أن البسملة آية من القرآن ، وأن لم تكن آية من كل سورة ذكرت فيها ، وهذا من فضل الله عز وجل على المسلمين أن جعل البسملة في بداية كل سورة ، فإذا قرأها المسلم مبتدئا السورة ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فإنه يستعين ويبدأ ويشرع ويقرأ ﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾ .

لفظ الجلالة :

و « الله » لفظ الجلالة علم على الذات الإلهية لا يشركه فيه أحد من خلقه ، و « الرحمن » أيضا اسم علم يفرد وحده كلفظ الجلالة « الله » ، قال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [الإسراء : ١١٠] وقال تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾[الرحمن: ١ ، ٢] ومما يدل على أن اسم« الرحمن » علم يفرد : أنك لاتستسيغ أن تقول: الرحيم علم القرآن ، وقال تعالى أيضا : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان : ٦٠] وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] وقال : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد : ٣٠] فالرحمن اسم مفرد لأنه علم على الذات الإلهية .

الرحمن الرحيم :

وصيغة « الرحمن » هذه تدل على المبالغة فى الرحمة فإذا قرنت بـ « الرحيم » ازدادت المبالغة فهو رحمن رحيم ، وعلى أى وجه فسرت « الرحمن الرحيم » المنعم بجلال النعم أو المنعم بدقائقها أو رحمن الدنيا

(١) ذهب الشيخ هنا مذهب كثير من أهل العلم والأئمة ومنهم الشافعى وغيره وللإمام ابن تيمية كلام طيب فى هذا يحسن أن ننقله يقول رحمه الله : « البسملة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة فى المصحف إذ لم يكتبوا فيه إلاالقرآن وجردوه مما ليس منه ، كالتخميس والتعشير وأسماء السور ، ولكن مع ذلك لا يقال هى من السورة التى بعدها كما أنها ليست فى السورة التى قبلها بل هى كما كتبت آية أنزلها الله فى كل سورة وإن لم تكن من السورة .. » أ . هـ انظر دقائق التفسير المجلد الأول ص ١٥ .

أو رحيم الآخرة أو غير ذلك ، فإن اجتماع الاسمين فى البسملة يدل على سعة رحمة الله تبارك وتعالى ، فهو سبحانه الموصوف بالرحمة ، والرحمة صفة ذاتية لله عز وجل ينبغى أن يوصف بهـا كما يوصف بالعلم ، والإرادة والقدرة ، والحياة ، والسمع والبصر والكلام ، وكما يوصف بالحكمة .

وقد وُصف الله سبحانه وتعالى بالرحمن الرحيم ، ووصف بأرحم الراحمين كما قال موسي عليه السلام ، قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥١] وكما قال سيدنا يعقوب عليه السلام : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين ﴾ [يوسف : ٦٤] وكما قال يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] وكما قال سيدنا أيوب عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِى الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] فهو سبحانه أرحم الراحمين وهو خير الراحمين : ﴿ وَقُلْ رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ١١٨] وقد وسعت رحمته كل شىء : ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] وكما قال الملائكة فى دعائهم : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] فكما أن علمه يسع كل شىء ، تسع رحمته كل شىء أيضا .

هذا هو الله سبحانه وتعالى رب المسلمين ، وإلههم ليس كما يقول دعاة التنصير والاستشراق وتلاميذهم : إن إله المسلمين إله جبروت وانتقام ولا يعرف بالرحمة ، فهذا كذب على الإسلام ، وعلى القرآن ، وعلى السنة ، فالله هو الرحمن الرحيم الذى اختار أن تبدأ سور القرآن كلها – عدا براءة – بالبسملة ، وأن يقرأها المسلم كل يوم فى صلاته أربعا وثلاثين مرة . سبع عشرة مرة فى البسملة – حيث الصلوات المفروضة فى اليـوم والليلة سبع عشرة ركعة – وسبع عشرة مرة أخرى فى الفاتحة فهى آية منهـا فهذه أربع وثلاثون عدا النوافل والأذكار ، لتظل حياة المسلم موصولة برحمة الله عز وجل ، فكيف يقال إن إله المسلمين إله عذاب وإله نقمة ؟! هذا غير صحيح بلا ريب .

الرحمة من صفات الله والعذاب من أفعاله :

وحينما قال الله عز وجل لرسوله ﷺ : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] جعل الرحمة كالمغفرة من أسمائه تعالى وصفاته ، أما العذاب فجعله من أفعاله ولم يجعله من أسمائه ، فليس من أسمائه المعذب ،وقد ذهب الإمام المحقق ابن القيم إلى أن اسم « المنتقم » لم يصح من أسماء الله الحسنى ، وفى القرآن « ذو انتقام » وليس فيه « المنتقم » هذه ، لا بالتعريف ولا بالتنكير .

وقد ورد لفظ « الرحمن » فى القرآن الكريم سبعًا وخمسين مرة (١) وهذا عدا ما فى البسملة فإذا أضفنا مائة وثلاث عشرة – وهى عدد ما فى البسملة من لفظ الرحمن – كان المجموع مائة وسبعين مرة ذكر فيها « الرحمن » فى القرآن الكريم كله ، أما لفظ « الرحيم » معرفا بالألف واللام أو غير معرف مثل رحيم ، رحيماً فقد ورد فى القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرة (٢) كما فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فإذا أضفنا إليه مائة وثلاث عشرة مرة أصبح مجموع ما ذكر فى القرآن منه مائتين وثمانيا وعشرين مرة ، وهذا يدلنا على مدى عناية القرآن بغرس معنى رحمة الله فى نفس الإنسان المسلم ، حتى إذا ناجى ربه ناجاه بهذا ، وإذا عامل ربه عامله بأنه الرحمن الرحيم ، فلا ينبغى أن ييأس من روح الله قط ، مهما تكن ذنوبه ومهما تتفاقم سيئاته فإن رحمة الله أعظم ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

* * *

---

(١) ورد لفظ الرحمن سبعًا وخمسين مرة فى القرآن الكريم كله ، وكلها معرفة بالألف واللام ،ولم ترد نكرة كما لم ترد معرفة بغير الألف واللام .. انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذى وضعه محمد فؤاد عبد الباقى ص ٣٠٧ طبعة المكتبة الإسلامية استانبول تركيا .

(٢) ورد لفظ الرحيم معرفًا وغير معرف كما ذكر الشيخ مائة وخمس عشرة مرة منها مائة وأربع عشرة مرة كصفة لله عز وجل ومرة واحدة كصفة للرسول ﷺ هى قوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

﴿ المر ، تلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد : ١].

الأحرف المقطعة فى أول السورة :

بدأت السورة بالحروف المقطعة ، وأحب قبل الكلام عنها أن أذكر هنا أن ترتيب السور على القول الراجح توقيفى ، ولو كان اجتهاديًا [١] - كما ذهب بعض العلماء إلى أن بعضها توقيفى وبعضها الآخر باجتهاد الصحابة - لأتت السور التى تبدأ بـ (الر) تباعاً بعضها إثر بعض ، ثم تأتى بعدها السورة التى تبدأ بـ ﴿ المر ﴾ فهذا هو المعقول ، ولأتت السور التى تحمل أساء الأنبياء متتابعة دون فصل أو بترتيب الأنبياء الزمنى فإبراهيم عليه السلام أسبق من يوسف ويونس عليهما السلام،وهكذا فهذا يدل على أن ترتيب السور ترتيب توقيفى.

بدأت السورة بـ ﴿ المر ﴾ وللمفسرين كلام طويل الذيول فى معانى الأحرف المقطعة لا نريد أن نطيل فيه ، فهناك من قال : إنها من المتشابه الذى لا يعلم معناه إلا الله ، ولذا نجد بعض المفسرين يقولون عندها : الله أعلم بمراده ، وهذا ما جاء عن صديق الأمة أبى بكر رضى الله عنه إذ قال : « **لكل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور** » [٢] كما جاء قريب من هذا عن ابن عباس ، وعن الشعبى علامة التابعين الذى قال : « الأحرف المقطعة فى أوائل السور سر الله فلاتطلبوه » [٣] .

---

(١) قال ابن تيمية رحمه الله : « ترتيب السور لم يكن واجبًا عليهم (الصحابة) منصوصا ، بل مفوضًا إلى اجتهادهم ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد وكذلك مصحف غيره » دقائق التفسير جـ ١ ص ١٣ .

(٢) انظر الطبرى جامع البيان جـ ١ ص ٦٨ . وذهب إلى أنها من المتشابه جماعة من العلماء منهم الشعبى والثورى والسيوطى والشوكانى وكثير غيرهم .

(٣) انظر : الرازي مفاتيح الغيب جـ ١ ص ١٥١ ، والنيسابورى غرائب القرآن جـ ١ ص ١٢٠ .

وهناك من قال إنهـــا رمـــوز وإشارات إلى أسماء الله تبارك وتعالى ، فالألف تشير إلى الله ، واللام تشير إلى لطيف ، والميم إلى مهيمن ، والراء إلى رحيم (٢) .

ومن قال إنها إشارة إلى أفعال الله ، فالألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم مجده ، والراء رحمته (٣) .

ومن قال إنها أسماء للسور ، فهذه سورة ﴿ الٓمٓر ﴾ وتلك ﴿ طَسٓ ﴾ وأخرى ﴿ حمٓ ﴾ ولكن هذه الحروف تتشابه وتشترك أكثر من سورة فى بداية واحدة فتحتاج فى تسميتها بالحروف إلى شيء آخر يميزها عن غيرها .

ومن قال إن هذه الحروف مسرودة سرداً أُريد به التنبيه على إعجاز القرآن والتحدى به (٤) ، كأنه يقول للمشركين : هذه الأحرف التى تسمعونها هى من جنس الأحرف التى ترتبون منها كلامكم ، ومع هذا عجزتم أن تأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله ، وهو الذى لم يخرج عن أحرف كلامكم ، فهذا دليل على أنه من وحى الله وليس من صنع محمد .

ومما يؤكد هذا الكلام – كما قالوا – إنه ما ذكرت هذه الأحرف إلا ويذكر بعدها القرآن مباشرة أو أثناء السور (٥) ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا

---

(٢) انظر : الطبرى جامع البيان جـ ١ ص ١٥٣ والرازى مفاتيح الغيب جـ ١ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، وابن كثير جـ ١ ص ٥٨ ، والسيوطى الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٩ .

(٣) انظر : الشوكاني فتح القدير جـ ٤ ص ٥١١ .

(٤) قال بهذا جمع من المفسرين والمتكلمين منهم ابن جرير الطـبرى فى جـامع البيان وأبو عبيدة فى مجاز القرآن وابن قتيبة فى تأويل مشكل القرآن والخليل وسيبويه ورويت عن زيد ابن أسلم من التابعين ، وأما من قال إنها للتحدى والإعجاز فمنهم قطرب ت ٢٠٦ هـ والفراء ت ٢١١ هـ والمبرِّد ت ٢٨٥ هـ ،وقد نص على ذلك الرازى فى مفاتيح الغيب جـ ١ ص ١٥٣ والنيسابورى فى غرائب القرآن جـ ١ ص ١٢١ وغيرهما .

(٥) قاله ابن القيم وغيره ، انظر : التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ص ٢٠٣ .

رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١ ، ٢] وقال: ﴿ المص * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ • • ﴾ [الأعراف : ١ ، ٢] وقال ﴿ الر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾[يونس : ١] وقال : ﴿ الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف : ١] وقال : ﴿ الر ، كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] وقال ﴿ الر ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] وقال فى سورة الرعد : ﴿ المر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ١] وهكذا فهو تنبيه على الإعجاز والتحدى •

وقد بدأت بعض السور بحرف واحد مثل: ﴿ ص ﴾ ، ﴿ ق ﴾ ، ﴿ ن ﴾ ، وبعضها بدأ بحرفين مثل ﴿ طس ﴾ ، ﴿ حم ﴾ ، و﴿ طه ﴾ ، و﴿ يس ﴾ وبعضها بدأ بثلاثة أحرف مثل ﴿ الم ﴾ ، ﴿ الر ﴾ ، وبعضها بدأ بأربعة أحرف مثل سورة الرعد هذه ، وسورة ﴿ المص ﴾ ، وبعضها بدأ بخمسة أحرف مثل ﴿ كهيعص ﴾ ، ﴿ حم * عسق ﴾ إلى آخره •

ويلاحظ أن هذه الحروف ذات نغم معين مؤثر ، وقد حدثنى بعض الأخوة أن بعض المتخصصين فى الموسيقى من الغربيين دخل فى الإسلام بعد سماعه تلك الأحرف ، فإن لها وقعا معينا ، وقد وجد هذا الموسيقى خللاً فى بعض الفواتح فتوقف فيه حتى سأل بعض المسلمين عن سر هذا فوجد أنه لم يقرأ الأحرف قراءة صحيحة مقطعة ، بل قرأها مجمعة (١) ونحن لا نعرف الموسيقى ، ولكن هذا القرآن – الذى نعرفه – عجيب جدًّا ، فهو يؤثر فى الأسماع ، ويؤثر فى القلوب ، حتى بجرسه وموسيقاه ، وكل سورة لها جرس معين وإيقاع معين ،وهذا

---

(١) ذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الحروف رموز صوتية موسيقية وقد أثبت هذا الدكتور زكى مبارك فى النثر الفنى فى القرن الرابع جـ ١ ص ٤٠ فى حديث مع أستاذه المسيو بلانشو Blanchot وتبعه كثيرون منهم عبد الكريم الخطيب الذى قال : « ولنا أن نحسبها مطلعاً موسيقيًّا تقوم عليه وحدة النغم » انظر التفسير القرآنى للقرآن جـ ١ ص ٢٥ •

ما يجعلنا نقول : إنه من المستحيل أن يترجم القرآن ترجمة كاملة مستوعبة ولو أمكننا ترجمة المعانى ، فكيف تترجم الجرس والإيقاع واللحن ؟ » .

ومن الأشياء التى عرفتها أن إخوانًا لنا لهم مستشفى فى أمريكا اسمه مستشفى أكبر – أو مستشفى الله أكبر – أجروا تجارب على المرضى بإسماعهم القرآن الكريم فوجدوا أن له تأثيراً على هؤلاء المرضى العربى المسلم منهم ، والعربى غير المسلم ، والأعجمى المسلم منهم ، والأعجمى غير المسلم ، من يفهم القرآن ومن لا يفهمه ، وكان هذا التأثير إيجابيًا ، فتحسنت أحوال المرضى [1] وهذا من العجائب فى تأثير هذا القرآن العظيم .

الإشارة بـ (تلك) :

﴿ الٓمٓر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ تلك إشارة إلى السورة المتلوة هذه ، على أساس أنها مستحضرة ، و (تِلْكَ) كما يقول النحويون اسم إشارة ،ولكنها إشارة للبعيد ، أما الإشارة إلى القريب فتكون بـ« هذه » و « هذا » ، و« ذلك » ، و « نلك » إشارة للبعيد ، و « وهؤلاء » إشارة للقريب ، و « أولئك » إشارة للبعيد ، فما وجه البعد فى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ ؟ ، يقول علماء البلاغة وعلماء التفسير : إن الشىء إذا كان رفيع المقام والمنزلة ينظر إليه باعتبار علو مقامه ورفعته كأنه بعيد ، ولهذا جاء فى القرآن : ﴿ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ [يونس : ٣٢] والله حاضر معنا : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُم ﴾[الحديد:٤] ،وجاء أيضًا :﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ،لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْئٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾[الأنعام:١٠٢] وهذا هو سر الإشارة بتلك وبذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة : ٢] أى ذلك الكتاب البعيد الشأن، العظيم المنزلة ، الرفيع المقام الذى لا تتطاول إليه الأعناق .

---

(١) تتبع عيادات أكبر – وهى عيادات بنما سيتى الآن – مؤسسة العلوم الطبية الإسلامية بولاية فلوريدا ومن فروعها معهد الطب الإسلامى وأمينها العام الدكتور أحمد محمد قناوى ومن ألمع أطبائها الدكتور أحمد القاضى .

معنى الآيات :

﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ الآيات : جمع آية ، والآية هى : العلامة الواضحة الدالة علي شيء ، قال تعالى على لسان زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً ﴾ [مريم : ١٠] حينما استجاب الله له إذ دعاه أن يصلح له زوجه ، ويرزقه غلاماً بعد الكبر، رغم عقم امرأته ، ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾[مريم :١٠] فالآية العلامة ،ولكنها فى القرآن تكون علامة على أشياء عديدة ، ولذلك تذكر كلمة الآية ، ويراد بها : الآية التكوينية فى الأنفس والآفاق،فى الأرض وفى السماء،فى العالم العلوى وفى العالم السفلى﴿ وفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠ ، ٢١] ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ولذلك نجد فى القرآن كثيراً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَات ﴾ (١) ، لقوم يعقلون أو لقوم يتفكرون إلى آخره من الآيات الكونية ، التى تدل على قدرة الله تعالى ووحدانيته وتدبيره وحكمته وعظمته .

وهناك الآية بمعنى المعجزة التى تدل على صدق الرسول أىّ رسول ، حينما يكذبه قومه ويقولون : ائتنا بآية دل على أنك رسول الله ، وتدل على أنك لا تمثل نفسك وإنما تمثل الإرادة الإلهية ، وقد أنزل الله على رسله آيات تدل على صدقهم مثل عصا موسى وخروج يده من جيبه ﴿ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ [طه : ٢٢] .

وهناك الآية بمعنى الآية التنزيلية الآية المتلوة المسموعة المقروءة مثل آيات القرآن الكريم ، ومنها هذه الكلمة التى معنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ (٢)

---

(١) وردت ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ بهذه الصيغة فى القرآن الكريم خمساً وعشرين مرة واختلفت نهاياتها فجاءت يؤمنون ست مرات ، ويسمعون مرة واحدة ،ويتفكرون أربع مرات ، ويعقلون ثلاث مرات ، ولكل صبار شكور أربع مرات ،وللمتوسمين مرة ، ولأولى النهى مرتين، وإن كنا لمبتلين مرة واحدة ، وللعالمين مرة ، وأفلايسمعون مرة واحدة ، فى سبع عشرة سورة .

(٢) وردت صيغة ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ فى القرآن سبع مرات ومرة واحدة بلفظ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ ﴾ .

فالواضح أنها الآية المتلوة ، الآية المنزلة من عند الله ، وكل سورة فى القرآن تشتمل على آيات ، فالسورة مجموعة من الآيات لها بداية ولها ختام ، حددت بتحديد رسول الله ﷺ لها ، أى بالتوقيف ، ولذلك عرف أن القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة ، والآية لفظة أو أكثر دلت على معنى معين ، وعرفت بدايتها وعرف ختامها بالتوقيف أيضًا ، وأقلها كلمة مثل قوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٤] آية فى كلمة واحدة ، وبعضهم جعل مثل قوله تعالى : ﴿ والفجر ﴾ [الفجر : ١] وقوله : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ [الضحى : ١] آية فى كلمة واحدة ، والصحيح أنها آية فى كلمتين فواو القسم كلمة والفجر كلمة ، والضحى كلمة ، باعتبار تقسيم النحويين للكلمة أنها اسم وفعل وحرف .

معنى الكتاب فى الآية :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ والكتاب هنا هو القرآن الكريم ، أو السورة من القرآن ، فمن الممكن أن تكون إشارة إلى السورة نفسها أو إلى القرآن والسورة دالة عليه ، وكنت قد أشرت فى المقدمة إلى أن كلمة الكتاب تذكر ويراد بها معان عدة ، فقد يراد بها القرآن كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢] وقد يراد بها التوراة والإنجيل مثل ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ (١) ويراد بها أحيانًا التوراة فقط ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [الإسراء : ٢] ويراد بها أحيانًا اللوح المحفوظ : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾ [الأحزاب : ٦] وأحيانًا يراد بها الكتاب المدونة فيه الأعمال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : ٤٩] ، وأحيانا يراد بها ما أنزله الله على رسله ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد : ٢٥] وأحيانًا يراد بها المكتوب : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٧٩] أو مصدر

---

(١) ورد هذا النداء ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اثنتى عشرة مرة .

بمعنى المكاتبة ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ [النور : ٣٣] أىْ المكاتبة بالنسبة للأرقاء ، فالسياق هو الذى يحدد المعنى .

والسياق فى هذه الآية ينطق بأن الكتاب هو القرآن ، وكلمة « الكتاب » بهذا التعريف تفيد الحصر . يقول المفسرون والبلاغيون :كأنه حصر الكتاب فى القرآن أى كأن هذا هو الكتاب ولا كتاب غيره ، كما تقول : هذا هو الرجل كأنك نفيت الرجولة عمن عداه ، أو تقول : شوقى الشاعر أى كأنه ليس هناك شاعر غيره ، فهذا نوع من الحصر ، حصر صفة الكمال فى هذا الشىء وكأنها نُفِيَتْ عن غيره،وذلك أن أى كتاب بعد ذلك إما كتاب وضعى من وضع البشر ، وهذا لا يرقى إلى مستوى كتاب أنزله الله ، وإما كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى ، وهذه حرفت وبدلت ، فلم يبق كتاب إلا كتاب الله عز وجل القرآن الكريم ، وكل الكتب قبله حرِّفت تحريفًا لفظيا وتحريفًا معنويًّا ، وأضاعها أهلها بعد أن استحفظوا عليها فلم يحفظوها ، أما القرآن فإن الله هو الذى تولى حفظه ولذلك فهو الكتاب ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَاب ﴾ . ثم إن القرآن وحده هو من بين الكتب الإلٰهية : الكتاب المعجز ، فلم ينزل الله كتابا معجزًا يتحدى به البشر غير هذا القرآن .

القرآن المنزل :

﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ هو القرآن أيضًا الذى أنزل على محمد ﷺ ، وعبر عنه بالذى أنزل ، ولم يقل : القرآن هو الحق ، أو هذا الكتاب هو الحق ؛ لأنه أراد أن يصفه بصفة لها تأثيرها فى إثبات الخبر « الحقّية » وهذه الصفة هى أنه منزل من رب محمد ﷺ ، فهو كتاب جاء من علو ، من فوق سبع سموات ، من الله سبحانه وتعالى ، إلى محمد ﷺ ، لم يصعد إليه محمد ﷺ وإنما أنزل إليه ، وهذا يدل على أن النبوة لا تنال بالكسب إنما توهب للناس هبة كما قال الناظم فى التوحيد :

ولم تكن نبوة مكتسبة وإن رقى فى الخير أعلى عقبة

فالنبوة لا تكتسب إنما تصطفى ، ولذلك أنزل الله القرآن إلى محمد ﷺ .

ثم تبين هذه العبارة : أن القرآن ليس كلاما نابعا من الأرض ، ولكنه وحىٌ نازل من السماء ، من عند الرب تبارك وتعالى .

﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ ونرى هنا كيف يستعمل القرآن الكريم صفة الربوبية ، وقد وردت فى القرآن مئات المرات بصيغ مختلفة ، رب العالمين ،ورب كل شىء ،وربك ،وربكم ،وربنا ،وربه ،وكلمة (رَّبِّكَ) وحدها ذكرت فى القرآن الكريم مائتين واثنتين وأربعين مرة بعضها ليس خطابًا لله سبحانه وتعالى مثل ما جاء فى سورة يوسف ﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾ [يوسف :٤٢] و ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ ﴾ [يوسف : ٥٠] أما ما عدا هذين الموضعين فهى لله سبحانه وتعالى ، ومعظمها خطاب لرسول الله ﷺ وبقيتها وردت فى قصص الأنبياء كقوله : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٦١] وقوله : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ [البقرة : ٦٩] وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾ [المائدة : ١١٢] وغير ذلك .

بين كلمة الرب فى القرآن وكلمة الأب فى الإنجيل :

وكلمة الرب تفيد معنى التربية والرعاية والتعهد والترقية فى مدارج الكمال ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم ﴾ [البقرة : ٢١] أى الذى يربيكم ويرعاكم ويتعهدكم بفضله وعنايته وإمداده ، ويرقيكم فى مدارج فضله وكماله لتبلغوا أقصى ما يمكنكم من الكمال المقدر لأمثالكم ، وليست كما قال بعض النصارى للأستاذ الإمام محمد عبده وذكر له بعض الفرنسيين وقال له : القرآن يتحدث إلى الناس دائمًا بلغة القهر : أنه صاحب السلطان القاهر وصاحب الجبروت وصاحب الكبرياء ، أما الإنجيل فيتحدث للناس على أن الله تعالى هو « الأب » وكلمة الأب تعنى العطف والرحمة ، هذا مع أن كلمة « الرب » أعظم وأبلغ وأعمق من كلمة الأب ، فكلمة الأب قد تكون فيها شبهة

الولادة ، والله لم يلد ولم يولد ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فكثيراً ما تكون علاقة الأب بابنه علاقة الحاجة ، فالأب يحتاج إلى ذرية فينجب ، وأحيانًا تدفعه إلى ذلك الشهوة ، كما قال ذلك المعرى وغيره : إن شهوة آبائنا هى التى جلبت علينا النكد فى حياتنا . أما الله سبحانه وتعالى فهو يخلق الناس دون حاجة إليهم ، يخلقهم بفضله ويرعاهم بفضله ، فنعمة الإيجاد والإمداد من الله ابتداء ، فهو الرب الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة .

لقد رأينا بعض الآباء يهجر أبناءه أو يتركهم ، بل رأينا منهم من يقتل أبناءه من إملاق واقع أو خشية إملاق متوقع ، كما ذكر القرآن وسجل ذلك على العرب فى جاهليتهم : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] .

أما علاقة الله تعالى بعباده فهى علاقة البر والرحمة التى ليس وراءها منفعة ولا حاجة ولا شهوة ، ولذلك كان الله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، بل هو أبرّ بهم من أنفسهم .

قد يسىء الإنسان إلى أبيه مرة ، فإذا ندم على ذلك فقد يتعب أشد التعب فى استرضاء أبيه ، وقد عرفت بعض الأبناء أساءوا إلى آبائهم وندموا ، وأرادوا أن يحسنوا إليهم ، فظلوا سنين ولم يستطيعوا أن يحصلوا على رضا آبائهم ، أما الله تعالى فإنك تسىء العلاقة معه وتذنب فى حقه ، وتفرط فى جنبه ، فإذا قلت : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣] فتح لك الباب على مصراعيه ، ولم تجد على بابه حاجبًا ولا بوابًا ، فالله أبرّ بك من نفسك ، وأرحم بك من أبويك ، وهذا هو الرب ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[الرعد : ١] .

كلمة (الحق) فى القرآن :

و « الحق » كلمة من الكلمات القرآنية التى شاعت فى القرآن كله مكيَّه ومدنيَّه ، وقد وردت معرفة بالألف واللام مائة وخمسًا وثمانين مرة فى القرآن كله (١) ، ومعناها من « حَقَّ » أى ثبت ووقع ، فأصل الحق هو الثابت الواقع الصحيح ، وكلما كان الشيء أكثر ثبوتًا وأبعد عن التغير ،كان أقرب إلى ماهية الحق ، ولذلك كان الحق بإطلاق هو الله تبارك وتعالى ، فهو الحق الذى لا يعتريه باطل كما قال عز وجل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان : ٣٠] .

ومن غابت عنه هذه الحقيقة فى الدنيا فسوف تتكشف له فى الدار الآخرة ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور:٢٥] وما جاء من عند الله فهو حق ، ولذلك كان القرآن حقًّا :﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقّ ﴾ [الرعد : ١] فالحق أطلق فى القرآن على القرآن نفسه كما فى هذه السورة،وأطلق على الإسلام دين الحق ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقُّ ﴾ [التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف:٩] وأطلق على الساعة : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَق ﴾ [الشورى : ١٨] لأنها ثابتة وواقعة ولا يمكن أن تتخلف وإن كنا لا نعلم موعدها .

والقرآن حق من نواحى عدة : حق من ناحية مُنْزِله ، لأنه من عند الله الحق ، وحق من ناحية غايته ، لأنه كتاب يهدى إلى الحق ، كما اعترف بذلك الجنّ أنفسهم حينما استمعوا إليه فرجعوا إلى قومهم منذرين ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٠] وحق من ناحية مضمونه ومحتواه ، فكل

---

(١) وردت لفظة الحق معرفة بأل ومجردة وغير مجردة من حروف الجر وغيرها وعلى معان مختلفة مائة وأربعًا وتسعين مرة (١٩٤) انظر محمد فؤاد عبد الباقى المعجم المفهرس ص ٢٠٨ وما بعدها .

ما فيه حق . أخباره حـق ؛ لأنها لا تتخلف ، ولأنها الصدق الذى لا يشوبه كذب . وأحكامه حق ؛ لأنها العدل الذى لا يشوبه ظلم ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : ١١٥] صدقًا فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام . لذا قال تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] .

القرآن إذن كله حق بل هو الحق ، والتعبير الذى معنا يقول ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾[الرعد : ١] ، وأهل العربية يقولون : إن هذا التعبير يفيد الحصر ، فركنا الإسناد أو المسند إليه والمسند أو المبتدأ والخبر – كما يقول البلاغيون – إذا كانا معرفين أفادا الحصر – حصر الخبر فى المبتدأ – ، والمسند إليه هنا أو المبتدأ هو « الذى » فى قـوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ وهو اسم موصول معرفة ، والمسند أو الخبر هو « الحق » وهو معرفة أيضًا ، فكأننا حصرنا الحق فى القرآن ، فهو الحق ولا حق غيره ، كما نقول شوقى الشاعر أى لا شاعر غيره [1] ومعنى حصر الحق فى القرآن – كتاب الله عز وجل – أى لا يوجد كتاب غيره دينى أو دنيوى يوصف بأنه الحق ، فهو الحق المصفى الذى لا شائبة فيه كما عبر القرآن ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

الأكثرية لا تؤمن :

﴿ وَلَكِنَّ أَكثر النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[الرعد : ١] لكن حرف استدراك – كما يقول النحويون – والاستدراك رفع شىء توهم ثبوته ، كأن تقول : « زيد شجاع ولكنه بخيل » فالغالب أن الشجاعة والكرم متلازمان ، فكيف يجود الإنسان

---

(١) هو أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى لقب بأمير الشعراء فى العصر الحديث ولد عام ١٨٦٨ م بالقاهرة نشأ وترعرع فى القصر الملكى المصرى وله أصول تركية ، أرسله الخديوى توفيق إلى فرنسا فأكمل دراسة الحقوق واطلع على الأدب الفرنسى وعين رئيسًا للقلم الافرنجى فى ديوان الخديوى عباس حلمى واختير من بين أعضاء مجلس الشيوخ إلى أن توفى عام ١٩٣٢ م تناول شعره شتى الموضوعات وجرى على كل لسان فى العالم العربى والإسلامى ، وله آثار منها ديوانه الشوقيات فى أربعة أجزاء .

بنفسه ،والجود بالنفس أقصى غايات الجود ،ولا يجود بماله ؟ فالذى يتوهم أنه كما ثبتت له الشجاعة يثبت له الجود والكرم والسخاء ، فتأتى «لكنّ» لرفع هذا التوهم تقول « ولكنه بخيل » مع شجاعته،فالقرآن حينما قال : ﴿ وَالَّذى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ كان المتوقع أن يؤمن أكثر الناس به ما دام حقًّا ، بل ما دام هو الحق البين الواضح النير المضىء الذى دلت عليه كل الشواهد ، وشهدت به الفطر السليمة ، وشهدت به العقول الرشيدة ، وشهد به المشركون أنفسهم فى بعض الأوقات حينما تركوا أنفسهم على سجيتها بأنه الحق « وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى (١) وشهد الجن بأنه : ﴿ يَهْدى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٣٠] وشهد له الذين آمنوا ﴿ فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبهم ﴾[البقرة:٢٦] وشهد له المنصفون من أهل الكتاب : ﴿ وَإِنَّ الَّذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبِّهم ﴾ [البقرة : ١٤٤] وشهد أولو العلم بأنه الحق : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ من رَّبّكَ فَيُؤْمنُوا به فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُم ﴾ [الحج : ٥٤] ، ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذى أُنزِلَ إِلَيْكَ من رَّبّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[سبأ : ٦] شهد كل هؤلاء لهذا الكتاب بأنه الحق ، ومع هذا لم يؤمن أكثر الناس ، وهذا أمر مؤسف : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

إن القرآن كتاب عظيم ، كتاب عالمى ، فلم يقل : أكثر العرب أو أكثر أهل الشرق ، ولكن قال ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وكلمة (الناس) ذكرت فى القرآن الكريم مائتين وأربعين مرة ، وأنا معنّى بذكر أعداد الكلمات القرآنية ، لأنها (مؤشرات) تشير إلى محاور اهتمام القرآن ، وما هى الأشياء التى يعنى بها

---

(١) قال الإمام العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء المجلد الأول ص ٢٧٤ حديث خالد بن عقبة الذى جاء إلى رسول الله ﷺ وقال اقرأ علىَّ القرآن فقرأ عليه ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى القُرْبَى ﴾[النحل : ٩٠] فقال : أعد فقال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر » ما ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال « الوليد بن المغيرة » بدل خالد ابن عقبة وكذا ذكر ابن إسحاق فى السيرة بنحوه .

ويكررها ، لأن تكرار الأشياء فى القرآن دليل على أنها من مهمات القرآن ، ومن أهدافه تثبيتُها والتعريف بها ، ولفت الأنظار والقلوب إليها .

لماذا لا يؤمن أكثر الناس ؟ :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ رغم وضوح الحق وسطوع شمسه لا يؤمنون ، وهذا مؤسف حقًا ، وقد سجله القرآن على أكثرية الناس : أنهم لا يؤمنون ، وأنهم لا يعلمون ،وأنهم لا يشكرون ،وأنهم لا يعقلون ، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وذم القرآن لهذه الأكثرية غير المؤمنة يدلنا على شيء مهم ، وهو أن الإيمان أمر اختيارى ، أى أن الإنسان فى استطاعته أن يؤمن ،كما أن فى استطاعته أن يكفر ، ولو كان الإيمان أمرًا إجباريًّا اضطراريًّا ما ذم الله الذين لا يؤمنون ، وما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق : ٢٠] ، ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُم ﴾[الحديد :٨] ، ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء:٣٩] ، هذه النداءات وهذه الإنكارات تدل على أن الإيمان أمر اختيارى ، وأول ما يطلب من الإنسان مما يكلف به العقلاء أن يؤمن بالله عز وجل .

والإيمان هو التصديق والإذعان ، وليس مجرد معرفة الحق ، فكثير من الناس عرفوا الحق ولم يؤمنوا ،وهذا هو ما نلحظه فعلاً ، وسجله القرآن نفسه ، وعرفناه من وقائع التاريخ ، فكم من أناس عرفوا الحق واضحًا لائحا بيّنًا أمامهم تلوح أنواره ، ومع هذا لم يستجيبوا له، ولم يذعنوا له،ولم ينقادوا له لأسباب شتى .

منها : الكبر والعلو كالذين قال الله فيهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] وهكذا قال الله تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] هو العلو والاستكبار فى الأرض الذى يمنع من الإيمان .

ومما يمنعه أيضًا الحسد ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، والعصبية أحياناً فاليهود من بنى إسرائيل كانوا يعرفون أن محمداً ﷺ نبى وكتبهم تبشر به ، وعلاماته واضحة ، ولكنهم كما قال الله تعالى :﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾[البقرة:٩١] أى نؤمن بالكتاب الذى أنزل على بنى إسرائيل . أما ما ينزل على بنى إسماعيل فلا نؤمن به ، وهذه عصبية كما قال جماعة المتنبئين والمرتدين « كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » فاليهود ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُم ﴾ [البقرة : ٩١] ، عصبية كما قال بعض مشركى قريش أبو جهل وغيره " : « تنافسنا نحن وبنو هاشم ، أطعموا فأطعمنا ، وسقوا فسقينا وكذا وكذا .. حتى إذا تحاذينا على الركب وأصبحنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يوحى إليه ؟! » وهذه العصبية هى التى جعلتهم يكفرون .

ومما يمنع من الإيمان أيضاً التقليد الأعمى ، فحينما نقرأ فى رسالات الأنبياء وقصصهم نجد : ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [هود : ٦٢] ، ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] ،وهذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد حيناً أو للسادة والكبراء حيناً :﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ﴾ [الأحزاب : ٦٧] يمنع من الإيمان .

كما يمنع منه حب الدنيا أحياناً ، فالإنسان قد ينتفع من وراء الكفر مثل كثير من الأحبار والرهبان الذين كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، ومن حب الدنيا : حب الملك ، فقد رأينا هرقل حينما جاءه كتاب رسول الله ﷺ وأراد أن يستوثق من هذا النبى ، وكان يتوقع ظهور نبى ، فجاء بأبى سفيان ومن معه – وهو من بلاد العرب ومن نفس بلدة محمد ﷺ – وسأله أسئلة فى غاية الدقة والروعة ، ليعرف منه : أهو صادق أم كاذب ، ومن

قرأ هذا الحديث فى أوائل صحيح البخارى عجب من أسئلة هذا الرجل ، وقد عرف من هذه الأسئلة أنه على حق وجمع رجال دينه ورجال كهنوته وعرض عليهم الأمر ، فحاصوا حيصة حمر الوحش وهاجوا عليه ، فحينما وجد أن الأمر سيتفلت منه ويفلت الزمام من يده تراجع ، وقال : إنما أردت أن أختبر ثباتكم على دينكم ، وغلَّب حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته .

وهناك عوامل شتى تجعل الناس لا يؤمنون بالحق والحق أمامهم بيِّن المعالم ، واضح القسمات : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[الرعد : ١] .

وقفتان فى تفسير الآية :

وأحب قبل أن أنتقل إلى الآية الثانية أن أذكر أمرين يتعلقان بالآية الأولى ، الأمر الأول : أثاره بعض المفسرين القدامى ، والأمر الثانى : أثاره بعض المعاصرين ، وكلا الأمرين يتعلق بالأحكام والفقه ، وهذا يدلنا على أن الآيات التى تتعلق بالأحكام ليست هى الآيات المحصورة فى خمسمائة آية أو نحو ذلك وتتحدث عنها كتب تفسير آيات الأحكام .

هل الآية تنفى القياس ؟

فقد وقف بعض المفسرين عند قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ وقالوا هذه الآية تنفى القياس والاستدلال به ، واعتباره أصلاً يعول عليه ويرجع إليه فى الأحكام لأن الآية بهذه الصيغة حصرت الحق فيما أنزل من عند ربنا عز وجل ، والقياس ليس أصلاً منزلاً وإنما هو رأى اجتهادى من أهل الاجتهاد ، فإذن قد خرج عن دائرة الحق ، هكذا قال من قال من المفسرين الذين يهتمون بأمور الفقه فى الآيات ، والواقع أن هذا الاستدلال لا يستقيم ولا يُسلَّم لهؤلاء ، حتى وإن قلنا : إن الحصر هنا حصر حقيقى ، مع أنه قد يقال إنه حصر إضافى وليس حقيقيًّا ، لأننا نقول إن الذى أنزل من الله سبحانه وتعالى - وهو القرآن-يدل على القياس كما يدل على غيره بالتبع ، فالقياس جاء ضمن آيات

القرآن من مثل : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِى الأَبْصَارَ ﴾ [الحشر : ٢] والاعتبار الانتقال من حادثة إلى حادثة لتعطى الثانية حكـــم الأولى ، من إعطاء النظير حكم نظيره ، إلى آخر ما استدل به أهل القياس من القرآن الكريم ، فالقياس إذن متضمن فى القرآن ،وهكذا يقال فى نفس الأدلة الأخرى مثل الإجماع ، ومثل السنة النبوية نفسها فهذا يقال فيها أيضاً فقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُ ﴾ هو القرآن ، والسنة ليست منزلة فهل هى خالية عن الحق ؟ نقول : لا ، لأن القرآن دل على السنة ، كما دل على الإجماع . كما دل على القياس ، حينما قال الله تعـــالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] ، وحينما قال : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور:٥٤] ، وحينما قال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، فاعتبر هذا أيضاً من الحق الذى جاء به القرآن .

على أن هناك أمراً لم يذكره المفسرون القدامى ، وهو أن ما أنزل الله تعالى أمران ، أنزل الله تعالى الكتاب ، وأنزل معه الميزان ، كما قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] وقال أيضاً : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فما الميزان إذن ؟ ليس الميزان هو ما توزن به الخضروات والفواكه وهذه الأشياء، فالأمر أكبر من هذا ، فالميزان الذى قرنه الله بالكتاب : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ ، وقرنه برفع السماء فى سورة الرحمن : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٧ ، ٨ ، ٩] ليس ميزاناً مادياً حسياً من حديد أو من ألمنيوم أو غير ذلك ، ولكنه ميزان معنوى توزن به الأفكار والأعمال والقيم ، فهذا هو الميزان الذى يدخل فيه القياس ، وكل نظر صحيح يقوم على اعتبار عقلي صحيح ، فهو كما يقول العلامة ابن القيم « هما فى الإنزال أخوان » الكتاب

والميزان ، فعلى هذا يدخل القياس ضمـــن ما أنزل الله ، لأن الله أنزل الكتاب بالحق ، وأنزل الميزان بالحق أيضاً ،وهذه هى القضية الأولى .

هل تدل الآية وأمثالها على إلغاء رأى الأكثرية ؟

أما القضية الثانية : من قضايا الأحكام الفقهية التى أثيرت فى عصرنا حول قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ومثلها : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣ ، يوسف : ٣٨ ، غافر : ٦١] ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) إلى آخر ما جاء من هذا النوع ، فقد استدل بعض الناس بمثل هذه الآيات على أن الأكثرية لا اعتبار لها فى أى أمر من الأمور ، وعلى هذا أنكر من أنكر نظام التصويت بالأغلبيـة فى القضايا المصلحية والقضايا الاجتهادية ، وقال من قال : هذا نظام غربى ، هذا نظام مستورد ، هذا نظام ديمقراطى لا نعرفه ولا يعرفنا ! .

وهكذا بهذه السهولة وهذه البساطة ردّ أولئك المتسرعون هذا النظام الذى يقوم على اعتبار رأى الأغلبية بمثل هذه الآيات ، وهذا استدلال خطأ ، فالمشكل ليس فى الاستدلال بالقرآن والسنة ، فكثير من الناس يستدلون بالقرآن ويستدلون بالحديث ، والحديث الصحيح ، ولكن كثيراً ما يوضع النص فى غير موضعه ، أن يستدل بالنص على ما لم يسق له النص ، وهنا الآفة الكبيرة : وضع النصوص فى غير موضعها ،وأحياناً يكون هذا عن غفلة ، وأحياناً يكون عن عمد وسوء نية ، وهذا ما نسميه (تحريف الكلم عن مواضعه) .

فالآيات التى ذمت أكثرية الذين لا يؤمنون أو لا يشكرون أولا يعلمون ، جاءت فى قضايا العقيدة ، ولكن فى القضايا التى تتعلق بمصالح الناس وتتعلق بالأمور الاجتهادية التى تتعدد فيها وجهات النظر ما بين مؤيد ومعارض ، أنختار هذا رئيساً أم نختار ذاك ؟ زيداً أم عمراً أم بكراً ؟

---

(١) وردت هذه الصيغة اثنتى عشرة مرة منها بعض آية فى ١٨٧ الأعراف ، ٢١ ، ٤٠ ، ٦٨ يوسف ، ٣٨ النحل وغير ذلك .